المنهج السيميائي

يعتبر المنهج السيميائي واحدا من المناهج التي استطاعت أن تفرض نفسها في الساحة النقدية الحديثة عموما وفي علوم الإعلام والاتصال بشكل خاص كمجال من مجالات السميولوجيـــا. لقد تميزت سنوات السبعينات بالتطور الكبير للسميولوجيا وهو العلم المؤسس في بداية القرن العشرين من قبل السويسري "فرديناند دي سوسور" وهي تعني حسب هذا الأخير العلم العام الذي يدرس حالة الدلائل (اللسانية وغير اللسانية) وسط الحياة الاجتماعية، ولذلك تتميز السميولوجيا بطابعها الواسع.

تُجْمع عدة كتابات ومعاجم لغوية وسيميائية على أن السيميائيات هي ذلك العلم الذي يُعْنَى بدراسة العلامات. وبهذا عرفها" فرديناند دوسوسير، وجورج مونان، وكريستيان ميتز، وتزفيتان تودوروف، وجوليان غريماص، وجون دوبوا، ورولان بارث"، وآخرون. ويبدو أن تعريف "مونان" أوفى هذه التعريفات وأجودها، إذ يحدد السيميولوجيا بأنها العلم العام الذي يدرس كل أنساق العلامات لتي بفضلها يتحقق التواصل بين الناس. وانطلاقا من هذا التعريف، يمكن أن نستخلص أموراً ثلاثة كالتالي:

- أن السيميولوجيا علم من العلوم، يخضع لضوابط ونواميسَ معينة كما هو الشأن بالنسبة إلى العلوم الأخرى. وهذا ما تنص عليه الكثير من التعاريف "سوسير – تودوروف – بارث...". ولكن ثمة تعريفات وآراء أخرى تنظر إلى السيميولوجيا باعتبارها منهجا من المناهج، أو وسيلة من وسائل البحث. وعند "شارلز ساندرس بيرس" هي نظرية شبه ضرورية أو شكلية للعلامات. إذاً، فنحن أمام ثلاثة آراء رأي يعتبر السيميائيات علما، وثان يجعلها منهاجا، وثالث يتخذها نظرية عامة. ويبدو أن الدارسين العرب المعاصرين يتعاملون معها باعتبارها منهجا يساعد على فهم النصوص والأنساق العلامية وتأويلها.

- إن السيميولوجيا تدرس العلامات وأنساقها، سواء كانت هذه العلامات لسانية أم غير لسانية.حسب "لويس برييطو" فهي العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات أيّاً كان مصدرها لغويا أم سَنَنيا أم مؤشريا".

- إن للعلامات أهمية كبرى، تتجلى في كونها تحقق التواصل بين الناس في المجتمع. يقول كولن شيري لا يوجد تواصل بدون نسق مكوَّن من دلائل"، ذلك بأن التواصل الإنساني –في جوهره- إنما هو "تبادل الدلائل (أو العلامات) بين بني البشر". ونظرا إلى أهمية التواصل هذه، فقد نشأ في مجال السيميائيات اتجاه يعنى بالتواصل والإبلاغ.

- تعريف منهج التحليل السميولوجي

-حسب الباحث الدانماركي "لويس يامسلاف" فالتحليل السيميولوجي هو مجموعة التقنيات والخطوات المستخدمة لوصف وتحليل شيء باعتباره له دلالة في حد ذاته وبإقامته علاقات مع أطراف أخرى من جهة أخرى.

- حسب "رولان بارث" فهو شكل من أشكال البحث الدقيق في المستويات العميقة للرسائل الإيقونية أو الألسنية على حد سواء يلتزم فيه الباحث بالحياد اتجاه هذه الرسائل من جهة ويسعى فيه من جهة أخرى إلى تحقيق التكامل من خلال التطرق إلى الجوانب الأخرى السيكولوجية والاجتماعية والثقافية وغيرها التي يمكن أن تدعم التحليل بشكل أو بآخر.

-أهمية التحليل السميولوجي: لقد فتحت السيمياء أمام الباحثين في مجالات متعددة آفاقا جديدة لتناول المنتوج الإنساني من زوايا نظر جديدة ، ولأن السيمياء لا تنفرد بموضوع خاص وإنما تهتم بكل ما ينتمي إلى التجربة الإنسانية العادية كانت النماذج التواصلية بكل أشكالها ومستوياتها مجالا بحثيا ملائما لاستكشاف تعالق القوالب اللسانية التركيبية والدلالية والتداولية بالقوالب المعرفية وضمن هذا السياق يتجه التحليل السيميائي للأنساق الاتصالية في إطار ملامسة قضايا الدلالة واستظهار تحليلاتها الوظيفية واستنطاق أبعادها الحيثية، فتجاوزا لنقائص تحليل المضمون الإمبريقي يلجأ باحثوا الاتصال الجماهيري إلى اقتناص المناهج الأدبية واللسانية والسيميائية لفحص مضامين وأشكال النصوص الاتصالية بهدف الإعتناء بالبنى العميقة للخطاب عبر تخصيصها واستنباط دلالاتها وفي هذا المقام فإن تفكيك عناصر النسق الاتصالي واستنطاق معانيه الضمنية يقتضي الإعتماد على منهج التحليل السيميائي الذي يقوم على مفهوم النسق،الآنية،والدليل أو العلامة اللغوية أو الصورية ،وبهذا الثالوث يرتبط هذا المنهج الذي يعد من أهم طرق البحث الكيفي أصوليا بالإرث البنيوي الذي اعتمدته مختلف العلوم الإنسانية (الأنتروبولوجيا،علم النفس،السوسيولوجيا،الأدب..) في الوصول إلى نتائج علمية لم تكن لتبلغها لولا اعتماد هذا الأسلوب العلمي ، وبهذا السياق المرجعي يكون التحليل السيميائي أفضل نهج يسلط الضوء على الآليات التي تنتج من خلالها المعاني في المضامين الإعلامية والاتصالية ويكشف عن العلاقات الداخلية لعناصر النسق ثم يعيد تشكيل نظام الدلالة بأسلوب يتيح فهما أفضل لوظيفة الرسالة الإعلامية داخل النسق الاتصالي .

3- مرتكزات التحليل السيميائي: ترتكز السيميائيات منهجيا على خطوتين إجرائيتين وهما التفكيك والتركيب قصد إعادة بناء النسق الاتصالي من جديد وتحديد ثوابته البنيوية لذلك يرتكز التحليل السميولوجي على ثلاثة مباديء أساسية:

- التحليل المحايث: ويقصد به البحث عن الشروط الداخلية المتحكمة في تكوين الدلالة، وإقصاء كل ما هو خارجي، أي أنه يجب أن ينظر إلى المعنى على أنه أثر ناتج عن شبكة العلاقات الرابطة بين العناصر.

- التحليل البنيوي: ينظر من خلاله إلى المعنى باعتباره مكتسب لوجوده بالإختلاف، وفي الإختلاف وبالتالي فإن إدراك معنى الأقوال والنصوص يفترض وجود نظام مبني على مجموعة من العلاقات، ما يؤدي بنا إلى التسليم بأن عناصر النص لا دلالة لها إلا عبر شبكة من العلاقات القائمة بينها. - تحليل الخطاب :إن منحى التحليل السيميائي الأول هو مساءلة الخطاب في شتى تجلياته الأمر الذي أفرز قطبين يجتذبان الاهتمام الإجرائي للنظرية السيميائية الأول يجسد النص فيما يمثل الثاني السياق وهكذا جاءت الإجراءات التحليلية السيميائية للجمع بين القطبين ومن ثمة وصل النص بالسياق لتحصيل التفاعلات المولدة للخطاب ضمن المحيط الاجتماعي والثقافي.

4- مقاربات التحليل السميولوجي في الاعلام والاتصال : يعد الخطاب البصري من أهم الأنساق الاتصالية الحاملة للرموز والدلالة ومن أهم المجالات البحثية في علوم الإعلام والاتصال بالنظر إلى تنوعه وانتشاره وتعدد وسائطه التكنولوجية التي أتاحت له المزيد من القوة والتأثير من خلال الاعتماد في نفس الوقت على باقي العناصر التعبيرية ،ففي هذا الصدد يرى رولان بارث أن الأشياء والصور والسلوكيات تحمل العديد من الدلالات لكن لا يمكنها أن تفعل ذلك بكيفية مستقلة إذ أن كل نظام دلالي

يمتزج باللغة فالماهية البصرية مثلا تعطي دلالة من خلال اقترانها برسالة لسانية ، إننا اليوم وأكثر من وقت مضى على الرغم من اجتياح الصور لحياتنا لا زلنا نتحدث عن حضارة الكتابة ويبدو في النهاية أن تخيل نظام من الصور والأشياء التي تستطيع مدلولاتها أن توجد خارج اللغة أمر يزداد صعوبة.

- إن الهدف الأساسي للسيمياء هو المساهمة في انفتاح الدراسات التواصلية والإعلامية على تصورات تحليلية جدلية وجهاز إجرائي متكامل يراعي خصوصية وطبيعة كل نسق اتصالي الأمر الذي نتج عنه تعدد في طرائق التحليل. وتعد مقاربة رولان بارث ومقاربة مارتين جولي من أهم المقاربات المعتمدة في تحليل الصورة في مجال الإعلام والاتصال.

مقاربة مارتين جولي: تعتبر جولي الصورة فضاء لتقاطع علامات عديدة مختلفة و متكاملة من علامات تشكيلية وعلامات أيقونية وعلامات لسانية وبناء على هذه العناصر تبني جولي مقاربتها السيميائية للصورة التي تسمح لنا بفهم مواصفتها أكثر لذلك تعتمد هذه المقاربة على الخطوات التالية:

- **الوصف:** نقوم من خلاله بملاحظة كل ماهو موجود على الصورة من عناصر حتى يتم تفكيكها وبالتالي يتم تحويل الرسالة البصرية إلى لغة مكتوبة ، لذلك فالوصف هو ماتراه العين المجردة.

- **المستوى التعييني:** يتضمن المستويات الثلاثة التالية :

- الرسالة التشكيلية **:** وهي العلامات المرئية التي تتجسد في مجمل العناصر التشكيلية للصورة وتعني كل المعلومات التي تتوفر لدينا عن طريق الرؤية، أي حصر مجموعة الدلائل التي توضح معنى الرسالة البصرية، و نتناول فيها العناصر التالية: الحامل ، الإطار ، التأطير ، زاوية التقاط الصورة واختيار الهدف ، التركيب و المونتاج أو الإخراج على الصورة ، الأشكال ، الألوان والإضاءة

- الرسالة الأيقونية: إن الأيقونة ترتكز على مبدأ التشابه بين الدال والمدلول كالتماثل أو التشابه السمعي في مثل إنتاج صوت ما يحاكي صوت الطبيعة ،أو التشابه البصري بين رسم كاريكاتور وصورة فوتوغرافية. فالعلامات الأيقونية تشكل مكونا أساسيا من مكونات الصورة لما تضمره من أبعاد إيحائية عديدة و متشعبة لأن الصورة دائما تريد أن تقول أكثر مما تعرضه بالدرجة الأولى. ومنه فإن العلامة الأيقونية عبارة عن رموز لها مدلولات تناسبها على المستوى التعييني وعلى المستوى التضميني. عليه فإن مقاربة العلامات الايقونية، يعني البحث عن المضامين الدلالية للعناصر التشكيلية والتي يتم دراستها من خلال مستويين متكاملين و هما:

- ✓ مستوى الموضوعات : يتم فيه التركيز على الموضوع أو الموضوعات المصورة مع وصف دقيق و مركز لجزئياتها الحاضرة و الغائبة وما تحمله من أبعاد تعبيرية معينة.
- ✓ مستوى وضعية النموذج : وهي الطريقة الخاصة المعتمدة في عرض الموضوعات وتوزيعها داخل مجال الصورة لتحديد أبعادها التعبيرية والذي غالبا ما يتم على أساس إجراءات إيحائية عديدة مؤسسة على مؤثرات مختلفة تتوزع بين الاستعمالات السوسيوثقافية للموضوعات المصورة من جهة، وأشكال وطرق عرضها على المشاهد من جهة أخرى.

- الرسالة الألسنية: عادة ما تكون الصورة متعددة المعاني وتحمل الكثير من المعلومات وهنا يأتي دور الرسالة الألسنية للتركيز على معنى محدد من أجل تبليغه .

- **المستوى التضميني:** من خلال المراحل السابقة التي تم فيها استخراج مختلف العناصر التشكيلية للصورة والأيقونات وتحديد دلالاتها الأولية بالإضافة إلى الرسالة الألسنية يتمكن الباحث من ربط تلك العناصر وإعادة بناء لمضمون الرسالة .

مقاربة رولان بارث : إن الصورة عند بارث وخاصة الصورة الإشهارية تشتغل كسنن مشكل من علامات ممتلئة أي أن كل العناصر التي تشتمل عليها مثبتة بشكل موجه داخل سيرورة التدليل، كما أن نمط التدليل داخل الصورة الإشهارية باعتبارها تزاوج بين الغاية الوظيفية المباشرة وبين إعادة انتاج قيم مختلفة لا يمكن تحديده إلا ضمن دائرة قيمية يوجد ويتداول ضمنها المنتوج أو الشيء ولا يحصل هذا إلا عبر المدلولات الإيحائية التي لا تظهر لها أي علاقة واضحة بالمنتوج أو الشيء.

- تقوم مقاربة رولان بارث في تحليله للرسالة الإشهارية على ثلاث مراحل بحثية متكاملة تتضمن كل مرحلة خطوات إجرائية خاصة:

الدراسة الشكلية (الوصفية): وتتضمن هذه الدراسة : الدراسة المورفولوجية ، الدراسة الفوتوغرافية ، الدراسة التيبوغرافية ، دراسة الألوان ، دراسة الشخصيات . وتندرج الدراسة الشكلية بخطواتها الإجرائية فيما يعرف سيميائيا بتحديد طبيعة الدليل وهي ما يسمى عند رولان بارث بالتعيين وتعني الدلالة الأولى والمعنى المشترك مع الدليل.

الدراسة التضمينية أو الإيقونية: وتتضمن الخطوات الإجرائية التالية :

- دراسة الأبعاد السيكولوجية للصورة من خلال:
  - ✓ تحليل المعطيات الفوتوغرافية كالتأطير واختيار الزوايا والإضاءة.
  - ✓ تحليل وتفسير الأبعاد التبوغرافية.
  - ✓ تحليل سيكولوجي للألوان ولإيحاءاتها المختلفة.
- دراسة التضمينات الاجتماعية والثقافية للصورة من خلال:
  - ✓ تحليل المدونات التعيينية
  - ✓ تحليل مدونة الحركات والإشارات
  - ✓ تحليل مدونة الوضعيات
  - ✓ تحليل سوسيوثقافي للألوان

والدراسة الأيقونية بخطواتها المختلفة هي ما يعرف في ميدان السيميولوجيا بفنية الكشف عن الدلالة الخفية لنظام الدليل وهي ما تسمى لدى رولان بارث بالتضمين وهو ذلك الجزء الإنساني لسيرورة الإدراك الذي يناشد الخبرة الذاتية للفاعل ويشير إلى القيم الثقافية الخاصة بمفكك الرموز، وضمن هذه الدراسة الأيقونية العامة سوف يتم دراسة مستوى التعيين الإدراكي والمعرفي والمستوى التضميني المتعلق بالإيديولوجيا وهو أعمق مستوى في تحليل الصورة لارتباطه بقيم ودوافع المتلقي ، وتختتم الدراسة الأيقونية بتحليل القيم الثقافية التي يتفاعل فيها الدليل من خلال تحليل الرموز والإشارات والإستعارات الأيقونية ثم تحليل التفاعل الحركي بين هذا الدليل والمادة والموضوع.

الدراسة الألسنية: وهو المحور الذي يتم فيه دراسة علاقة الجانب الألسني بالجانب الأيقوني من خلال وظيفتي الترسيخ والمناوبة:

- ✓ وظيفة الترسيخ: ذلك أن الصورة تتسم بالتعدد الدلالي أي تقدم للمتلقي عددا كبيرا من المدلولات لا ينتقي إلا بعضها و يهمل البعض الآخر ومن ثمة فإن النص اللفظي يوجه إدراك المتلقي ويقود قراءته للصورة بحيث لا يتجاوز حدودا في التأويل ، فالنص اللغوي إذ يمارس سلطة على الصورة ما دام يتحكم في قراءتها أو يكبح جماحها الدلالي إنه يقوده إلى معنى منتقى مسبقا.
- ✓ وظيفة المناوبة: وتكون حين يقوم النص اللغوي بإضافة دلالات جديدة للصورة بحيث أم مدلولاتها تتكامل وتنصهر في إطار واحد.

إن مقاربة رولان بارث بهذا الطرح تستخدم لتحليل الصورة الثابتة ،إلا أن أغلب الباحثين يستخدمونها لتحليل الرسالة الإشهارية السمعية البصرية بعد إضافة العنصر المتعلق بشريط الصورة والصوت في المرحلة المتعلقة بالدراسة الشكلية وذلك بفضل المساهمة الكبيرة التي أضافها "كريستيان ميتز" في منهجية التحليل السنمائي عندما نشر مقال بعنوان: cinéma langue ou langage .